سعد زغلول

نشأته الاولى — الازهر وأثره في تكوينه

[طلبنا الى حضرة النائب المحترم الاستاذ صبري بك ابو علم ان يكتب للمقتطف بحثاً تاريخيًّا في سيرة الراحل الكريم المغفور لهُ سعد زغلول باشا . فلبى الطلب مع كثرة المهام وللحال انصرف الى البحث والتنقيب في مجموعات الصحف التي كانت تصدر قبل الثورة العرابية وبعدها ليستخرج منها سيرة الراحل الكريم في ذلك الزمان. ثم عارض ذلك بما قالهُ سعد باشا في خطبهِ وبما قالهُ مختلف الكتّاب من عرب وافرنج فيهِ . فجاءت رسالة الاستاذ صبري بك كما يبلغ ما يكتبهُ الكتّاب الفريدون في سير عظمائهم جامعة بين تحقيق في البحث وانصاف في الحكم وبلاغة في التعبير وسهولة في تسلسل الكلام وسياقهِ . وقد اختصَّ التبذة الاولى بحداثة الفقيد العظيم ونشأتهِ وما كان للازهر الشريف وللمرحوم الاستاذ الامام والسيد جمال الدين الافغاني واديب بك اسحق وغيرهم من اثر في تكوين آرائهِ ومعتقداتهِ وطريقتهِ في الكتابة والخطابة]

—١—

قليل هم الرجال الذين يجعلون من انفسهم ما اعدتهم لهُ الطبيعة . ويصبحون من بلادهم المركز الذي تدور حوله . والعالم الذي تستظل بهِ . ولقد ظلت مصر أجيالاً تعمل لتكوين سعد . وما كاد ينضج ويخرج للعالم . حتى رأى فيهِ رجلاً علم الخصوم والاصدقاء كيف يحترمونهُ . وعرف فيهِ الذين كانوا يناضلونهُ خصماً شريفاً ، نزيهاً ، جريئاً . يضرب خصمهُ الضربات الشديدة ويتحمل مثلها . رجلاً ظل في مصر الى ان اختارهُ الله لجوارهِ . القوة المحركة ، الدافعة ، المانعة ، المرشدة لشعبه في مدلهم الحوادث والخطوب ، والملهمة لمصر بالحكمة حيناً وبالاقدام أحياناً . رجلاً تقاضت عظمتهُ الصحافة الانجليزية وكبار ساسة الانجليز ضريبة الاجلال والاحترام ؛ فنثروا على نعشه زهور الرثاء والتقدير . واعترفوا بأنهُ كان أصلب خصم اعترض المصالح البريطانية مراساً . واشدهم عناداً . واعظمهم خطراً . رجلاً ظل كما قالت التيمس «يواصل سعيه وجهاده حتى فاز بحمل الدولة التي استقرت في مصر اربعين عاماً . على أن تعترف لمصر بالاستقلال الذي اضاعتهُ من الفين وخمسمائة عام » . رجلاً تقدم الى

قبره زعيم العمال ورئيس حكومتهم الاولى من يُمر بتحية الوداع فقال: «كان زغلول اكثر من زعيم حزب فهو روح المصريين . وموته يخرج من ميدان السياسة المصرية شيئاً أكبر من رجل » . رجلا « شغل الحياة المصرية عامة . واجتمع فيه تاريخ مصر الحديث وانتهت اليه نهضتها الكبرى » كما قال دولة ثروت باشا وهو يؤبنهُ

انه رجل أصبح ملك الخلود والتاريخ . ولكن هل حان الوقت لكتابة تاريخ سعد . وسعد قد ظلَّ نيفاً وخمسين عاماً يتنقل بين مراحل نهضة مصر الحديثة ويسيّرها . ويتشبث في بيئاتها المختلفة . رافعاً علم التقدم والاصلاح . فطوراً نراهُ في الازهر ومعاهده طالباً نابغاً ثائراً . وطوراً نراهُ في الصحف الرسمية وغيرها كاتباً . أديباً . ناقداً . فاذا به في افق المحاماة نجماً طالعاً . ثم في كرسي القضاء بدراً ساطعاً . ففي دست الوزارة وزيراً مجدداً ، عاملاً ، مستقل الرأي . ثم يدخل الجمعية التشريعية ثائراً جريئاً . وزعيماً للمعارضة وخطيباً يرسل الصواعق فيزلزل اقدام الوزراء . ويعيرالجمعية من روحه نفوذاً فتخطى به كل حد رسمهُ لها واضعو قانونها النظامي . واخيراً يصعد آخر درجات الحياة سلّماً خفاقاً على رأس الامة والحكومة والبرلمان . تجتمع فيه الرياسات . يدين لهُ الزعماء بالزعامة . ويدين لهُ الشعب بالاخلاص. وينطوي لهُ العالم على الاجلال والاحترام : يتحدث فتهتزُّ الابطال . ويتحرك فيخفق البرق . ويتكلم فينصت الدهر . ويخطب فينفث السحر

هل حان الوقت لكتابة حياة سعد ودموعنا لما تجف . وثار آلامنا بفقده لا تزال متقدة تحت رماد التجلد والصبر؟ هل حان الوقت لتدوين حياته ولا يزال الجانب الاعظم من أعماله مستوراً عن أعين الكثيرين ؟ ولا يزال في صدور معاصريه واصدقائه أسرار لم تلتقطها اذن التاريخ ؟ ومن ذا الذي يتقدم لتحليل تلك الشخصية دون أن يرجع الى مذكرات سعد ومذكراتهُ كما يعلم الذين اسعدهم الحظ بسماع شيء منها ، وثائق تاريخية ثمينة ، تلقي النور على كثير من الحوادث والرجال. ولم تجر العادة ان تنشر مذكرات العظماء الا بعد مضي زمن تسكن فيه زوابع الخصومات ، حتى لا يسبب نشرها ألماً موجعاً لمن تناولتهم بالنقد أو التحليل : ويكفي ان نعلم ان نشر مذكرات السر هنري ولسون رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية في الشهر الاخير قد اثار من الخصومات والمجادلات العنيفة ، فتطايرمنها شرر اصاب كثيرين من رجال السياسة الاحياء فأقضَّ مضاجعهم. وازعجهم. حتى اثبرى المستر لويد جورج للردعليها وتفنيدها

على انهُ لا يصح ان يفهم من هذا اننا يجب ان نظل ساكتين حتى يطوي الموت اعمار الذين في صدورهم اسرار . أو في ذاكرتهم اخبار ممن التقوا مع سعد في سبيل، خصوصاً شرفاء . او اصدقاء اوفياء . دون أن يلقوا الى التاريخ بذات صدورهم . وودائع سرائرهم. فان مضيَّ الوقت الطويل من شأنهِ ان يضيع الوان الحوادث فيتلاشى بهاؤها وتذبل ذاكرة الناس ويقل اهتمامهم . فكأننا نقيم لانفسنا دون الحقائق سدًّا

فليتقدم من الآن المتقدمون يمهدون للمؤرخ فيجمعون آثار سعد وينقبون عن نشأتهِ الاولى . ويكشفون الغطاء عن كل ما اتصل بهِ من اعمال ، او صدر عنهُ من اقوال. حتى تتوافر بذلك للمؤرخ المواد التي يكوّن منها سفراً جليلاً يليق بسعد وعظمتهِ. واولى الناس بذلك هم الذين تفسوا معهُ هواء الحوادث التي خاض غمارها . وعرفوا عن قرب المعضلات التي واجهتهُ . وكيف كان يستقبلها . وكيف كان يذللها. وبأي الادوات كان يشتغل . بلا خشية من غلو او إغراق او تحيُّز. فما كانت عظمة سعد تحتاج الى محام اومدافع . فتقد كان لسعد من الشجاعة ما يكفي للاعتراف بالخطإ متى ظهر لهُ. ولهُ من عظمتهِ ما يحتمل ذكر غلطاتهِ بحيث لا ينقص ذكرها من عظمتهِ شيئاً . بل يكملها ويتمها

***

لا نتقدم بهذا تمهيداً لكتابة سيرة الفقيد العظيم فغاية ما نطمع فيهِ ان نرسم لهُ صورة قوامها ما انطبع في نفوسنا واستقرَّ فيها من آثار تلك الشخصية التي قلَّ في التاريخ مثالها . وعزَّ في الشرق منالها . مقدمين قبل ذلك بعض ما اجتمع لنا في هذه الفترة القصيرة من اخبار نشأتهِ الاولى

نشأته الاولى

ان الذي نعلمهُ عن نشأة سعد الاولى لا يشفي غليلاً ولا يروي نفوسنا المتطلعة وانَّ اقصى ما نتمناه على الباحثين والمؤرخين ان لا يشغلهم مجد سعد في شيخوختهِ عن ان يلقوا النور على سعد في شبابهِ . فالرجل العظيم ليس ابن الحوادث ولا تظفر بهِ الزمن طفرة . بل ينشأ عظيماً تلمس عظمتهُ في مختلف ادوار حياتهِ . خصوصاً اذا كان للاخلاق الجانب الاكبر في تكوين عظمتهِ

اما سنة مولدهِ فقد اختلف فيها الناس اختلافاً كبيراً غير اننا رجحنا في تحقيقها الى ما قررهُ الفقيد في خطبهِ واقوالهِ . فقد روى ضمن خطبة لهُ في ١٥ ابريل سنة ١٩٢١

انهُ وقت بدء اشتغاله بالمحاماة كان عمره اثنين وعشرين سنة ومن المتفق عليه انهُ اشتغل بالمحاماة في سنة ١٨٨٣ . لذلك كان اقرب الاقوال الى الصحة عن تاريخ ميلادهِ ماقيل من انهُ ولد في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٥٩

ولقد ولد في ابيانة من اعمال مركز قوة بمديرية القربية وخرج من صلب الامة المصرية ومن صميم الفلاحين . خطب مرة فقال : « لم اكن اميراً فيكم ... ولا انا من بيت كبير . بل انا فلاح ابن فلاح من بيت صغير يقول عليهِ خصومنا انهُ حقير. ونعمت الحقارة هذه ». على انهُ اذا علمت ان اخاهُ الشناوي افندي زغلول كان في ذلك الوقت رئيساً لمجلس مركز دسوق وان سعداً عند ما قدم القاهرة للالتحاق بالازهر استحضر معهُ طاهياً خاصًّا كما يقرر زملاؤهُ بالازهر علمت من اي اصل نبت سعد ومن اي بيت خرج

اذن جاء سعد كما قالت اليمس «من سلالة ذلك العنصر القديم الذي اتخذ اللغة العربية وعقيدة العرب الفاتحين منذ قرون . ولكنهُ على الرغم من الغارات الاجنبية والامتزاج بالاجناس الاخرى قد استوعب جميع النازلين بارض مصر واحتفظ بملامح اسلافهِ وبكثير من السمات التي ثبتت لهم قبل غارة الفرس على وادي النيل . وكانَّ منشأهُ هذا قد اولاهُ ادراكاً لطيفة قومهِ بنقص الساسة الآخرين وجاءت غرابة ظهوره نفسها وعدم توقعها فكانت من الاسباب التي ساعدتهُ على الظهور . وكانت سيرتهُ الحية مصداقاً للمثل اللاتيني ان افريقيا تأتي بشيء غير مألوف فانها نقضت الرأي الذي كان سائداً عند المماليك والترك وهو ان الزعامة السياسية والادارية لا يظهر لها اثر بين عنصر الفلاحين »

وتعلم سعد مبادىء القراءة والكتابة في مكتب القرية . وظل بهِ خمس سنين ثم شخص الى دسوق يطلب العلم بالجامع الدسوقي . وقد جوَّد القرآن على الشيخ عبدالله عبد العظيم وبين جدران ذلك المعهد عرف لسانهُ من القرآن حلاوة الفصاحة والطبع بأول طابع للبلاغة . وفيهِ تدرب لسانهُ الزلق المفوَّه على اخراج الكلام من مخارجهِ تام الصوت والجرس محكم النبرات

ولم يلبث بالجامع الدسوقي الا قليلاً ثم ارتحل الى القاهرة يقصد معهداً اوسع رحاباً واعظم شهرة واكثر علماء . التحق سعد بالجامع الازهر وظل فيهِ خمس سنين تلقى فيهِ العلم على كبار شيوخهِ في ذلك العهد . فتلقى على الاستاذ الامام « القطب على

الشمسية وبعض كتب التوحيد » وتعرف بكبار العقول في ذلك الوقت امثال الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ الباجوري

وصل سعد الى القاهرة حوالي سنة ١٨٧١ في الوقت الذي كانت مصر تستقبل فيه حركة فكرية قوية وتمخض الايام والحوادث فيها عن تكوين رأي عام قوي . فان جمال الدين الافغاني بعد ان أقام بمصر اربعين يوماً سنة ١٨٦٩ تعرف خلالها بكثير من علماء مصر واعلامها ، عاد الى الاستانة سنة ١٨٧٠ ثم الزمته دسائس الرجعية هناك بالعودة الى مصر فوصلها سنة ١٨٧١ واخذ يبث تعاليمه ويلقي بذوره في ارض صالحة مهيأة لتلقيها . أخذ يشرح آراءه في الاصلاح الديني وتخليص العقول من ربقة الجمود . ويشرح النظام الدستوري ومبادىء الاسلام في الشورى . وبث في النفوس روح الاستقلال والتخلص من تحكم الاجانب في الشرق وشعوبه . ولقي في هذا السبيل كل تشجيع من الشعب الذي اقبل عليه خاصته كل الاقبال ومن الحكومة التي ربطت له راتباً شهرياً قدره مائة وعشرون جنيهاً دون ان تأخذ عليه اي عهد . وصرحت له بالقاء محاضراته في الجامع الازهر وظل يدرس فيه حتى اختلف مع الشيخ عليش فنصح له الخديوي اسماعيل بالقاء في داره حيث كان يختلف اليه تلاميذه ومع صفوة شباب ذلك العصر وكبار الموظفين فاستمر يمرنهم على الكتابة والبحث ويدفعهم بروحه الثورية الى القضاء على سلطة الفرد والتمكين للنظام الدستوري في البلاد ، مستنداً في تعاليمه الدستورية الى ما جاء به الدين الاسلامي والى ما سنه الخلفاء الاولون من القدوة الصالحة في احترام الانظمة الشورية . وتقوية الروح الديمقراطية

ولم يكن جمال الدين رجل كلام فقط ولكنه نزل الى ميدان العمل مرشداً لتلاميذه فأسس هو وأديب اسحق في اول يوليه سنة ١٨٧٧ جريدة مصر وخرج جمال الدين من عزلته وصار يكتب فيها الفصول هو وتلاميذه واسس سليم نقاش بعد ذلك بمجموعة جريدتي المحروسة والعصر الجديد . وأصدر صديقه ابراهيم اللقاني سنة ١٨٧٩ جريدة مرآة الشرق

اثر الازهر في تكوين سعد

في هذا الجو الصالح لتربية النفوس والارواح أقبل سعد على القاهرة واتصل بالشيخ محمد عبده طالباً بالازهر . واصبح من مريدي جمال الدين وتلاميذه .

وتعرف بالشيخ عبد الكريم سلمان . وابراهيم النقاش . وشفيق بك منصور . وعلي بك فخري . والبارودي . وأديب اسحق . وكان يكتب الفصول والمقالات في جريدة مصر ونشرت لهُ جرائد المحروسة والبرهان والتجارة مقالات كثيرة . وكان كثير الاعجاب بأديب اسحق . وكثيراً ما سمعناهُ يثني عليهِ وعلى طريقتهِ في الخطابة

فبين جدران الازهر تكوّن سعد أول تكوين . وفي جوانب ذلك المعهد الديني الكبير . وبين جدران ذلك الجامع التاريخي الشهير . بدأت نفس سعد تظهر حرّة كريمة ابية . نافرة من الجمود في غير حركة . والسكون في غير بركة

خطب يوم الجمعة في ٨ ابريل سنة ١٩٢١ عقب عودتهِ الشهيرة من اوربا في الجامع الازهر فقال « جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة . لاقدم واجبات الاحترام لمكان نشأتُ فيهِ . وكان لهُ فضل كبير في النهضة الحاضرة . تلقيت فيهِ مبادىء الاستقلال لان طريقتهُ في التعليم تربي ملكتهُ في النفوس . فالتلميذ يختار شيخه . والاستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيهِ . ومتأهل لهُ يوجه كل منهم اليهِ الاسئلة التي يراها فان اجاب الاستاذ وخرج التلميذ ناجحاً من هذا الامتحان كان اهلاً لأن يجلس مجلس التدريس . وهذه الطريقة في الاستقلال التي تسمى الآن خللاً في النظام جعلتني أتحول من مالكي الى شافعي حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم »

فلم يكن سعد بالطالب المتكين الخامل . ولكنهُ كان يوازن بين الاساتذة ويفاضل بين المذاهب وينقد طريقة تدريس كل مدرس . ويثور ضد ما يغضبهُ من الانظمة . حدث انهُ جمع اخوانهُ الذين توثقت بينه وبينهم الروابط . وطلب منهم ان يعاونوهُ على اصلاح نظام الازهر في بعض الشؤون . فكتبوا المنشورات وعلقوها على اعمدة الازهر ليلاً فكانت اول صيحة احدثت ثورة صالحة فيهِ

ولقد كان لهذه النشأة الدينية الصالحة اثرها في تكوين جانب من عقلية سعد احس بهِ الذين خالطوهُ ايام الشدائد والخطوب . فقد كان عظيم الثقة بالله مخلصاً لهُ في السر والعلانية . تتجهم الحوادث . وتشتد الليالي . ويتلبد الجو . وهو في مقعده يبسم لها ابتسامة الواثق بانها عارض وينقشع . وسحابة وتولي . كأنه يتلمس يد العناية في كل خطوة . وكثيراً ما سمعناهُ يقول « ان هذه الحركة من صنع الله . وهو الذي يتولاها بعنايتهِ . ويتعهدها بلطفهِ » . وخطب مرة فقال « ولكن الله سبحانهُ وتعالى وهو

صاحب هذه الحركة . وباعث هذه الروح في انفسكم جميعاً يحميكم من كيدهم . ولن يفلح قصدهم وقد حكم عليهم بالخيبة الى يوم الدين »

وخطب مرة في احد الوفود فقال « لقد عودنا الله الاخذ بيدنا . وتعهدنا في الشدائد بحسن رعايته . وكلما اشتد الامر . اقتربنا من هذه الغاية . فعلينا ان نتمسك بحقوقنا . وان نتحمل الشدائد بالجأش الرابط . والصبر الجميل . والله ولي الصابرين »

فكان يخيل اليك وانت تسمعهُ انهُ يتراءى في احضان القضاء والقدر ويعتمد عليهما . وينتظر ما يخرجان لهُ كل يوم من اعاجيب . ولكنهُ كان يجمع الى الثقة بالله والاعتماد عليهِ الثقة بنفسهِ . وكان يجمع الى الاعتماد على نجمهِ الطالع ، اليقين بأمتهِ . فكان كثيراً ما يتقدم الحوادث بعلمهِ ورأيهِ . ويسيطر عليها ويسيّرها . ولا يخضع لها . ويتقدم واثقاً من الفوز كأنهُ في يدهِ . ضامناً للنتيجة كأنهُ اخذ عند التوفيق عهداً

أليس هو القائل عن امتهِ « ان الامم متى صحت إرادتها . وانعقدت عزيمتها . تغلبت على كل صعب . وابطلت كل تدبير . وقهرت كل غادر . ولم يحل بينها وبين ما تريد عقبة مهما قويت . ولا حيلة مهما اتسعت »

تلك كانت آثار تعاليم الازهر الدينية في نفسهِ . وقوة اختلاطها بروحهِ . فانظر الآن اثر تعاليم جمال الدين فيهِ

اثر جمال الدين

لقد كان جمال الدين الافغاني من جبابرة العقول في الشرق . وكانت شخصيتهُ من القوة بحيث تسيطر على النفوس والعقول والارواح . فبين يدي ذلك الفيلسوف العظيم وفي احضان فلسفتهِ الثائرة على الجمود في الدين . والاستبداد . وظلم الشعوب . شبَّ سعد وترعرع ونما

كانت البذرة قوية . وكانت التربة صالحة . فانبتت نباتاً قويًّا . كان جمال الدين متعمقاً في البحث . غوَّاصاً على المعاني . قوي تيار الجدل . متين الحجة . مبين الاسلوب . وكان يرمي الى غايتين : الاصلاح الديني وقد خلفهُ فيهِ الشيخ محمد عبده ، وفي الاصلاح السياسي وقد خلفهُ فيهِ سعد زغلول وعقد لكل منهما لواء الزعامة في بابهِ

ولقد ظهرت آثار جمال الدين في سعد في طريقة كتابتهِ . وفي المنحى الذي اتجاهُ في البحث شابًّا . انظر اليهِ تراهُ يخلو الى نفسهِ ولما يبلغ الثامنة عشرة فيطالع

كتاب ابن مسكويه في فلسفة الاخلاق ويلخصهُ ويطبعهُ. وانظر اليه حين اكمل العقد الثاني من حياته وقد تعين سنة ١٨٨١ محرراً في القسم الادبي في الوقائع المصرية ورئيسهُ فيها اذ ذاك الشيخ محمد عبده تراهُ يكتب مقالات في الشورى والاستبداد . والوهم . والبخل . وكلها تنم على غزير علم . وقوة جدل لم يعرفها العهد القديم . وأدب كتابة لم يكن للكتاب به عهد من قبل . وجرأة في القول ماكان لغير تلميذ جمال الدين ان يبلغ اليها

وكانت احكام المجالس الملغاة تُنشر في ذلك الوقت بالوقائع المصرية . فبعد ان كان عمله بها قاصراً على مراجعة المقالات والتنبيه على مواقع الخطإ فيها . عهدَ اليه في امر نقد تلك الاحكام وتلخيص معانيها . فقام بهذا العمل على اكمل وجه واتمهِ . ومن وقتها تربت في سعد ملكة الجدل القضائي . وتحركت في نفسه عوامل الدفاع عن الظلم لما ظهر له في تلك الاحكام من عيوب ونقائص ضاعت بها حقوق الناس او ضعف في حجتهم . او عجز عن ايضاح حقهم . او سوء فهم من اعضاء مجالس الاحكام او ميلهم عن جادة الحق لانعدام الاشراف على عملهم من جانب الدفاع

كل هذا مضافاً اليه ما وهبهُ سعد من فصاحة تخلب الالباب . وبلاغة تسحر العقول وقوة جدل تسد على خصمهِ كل منفذ وبديهة حاضرة تليه ان ناداها وقوة حجة وذاكرة عجيبة لازمتهُ حتى الوفاة . وذهن مرتب وخيال خصب حرّك نفسهُ الى معالجة المحاماة فيما بعد

قال في خطبة لهُ القاها في الحفلة التي اقيمت لهُ عندما اختير لمنصب القضاء «والذي حبّب اليَّ الاشتغال بهذه الصناعة اني كنت مشتغلاً من قبلها بوظيفة من شأنها الاطلاع على احكام المحاكم الملغاة التي كانت تنشر في الجريدة الرسمية يوم كنت عضواً في هيئة تحريرها . وكان من حظي ان عُهد اليَّ في امر نقد تلك الاحكام وتلخيص معانيها ثم انتقلت من هذه الوظيفة الى وظيفة ناظر قلم قضايا مديرية الجيزة وهي كما تعلمون اشبهُ بوظيفة القاضي اذ كان من خصائصها ان يصدر الاحكام في كثير من المواد الجزئية»

على انهُ يظهر ان سعداً تمرّن مأموناً في الداخلية قبل تعيينهِ ناظراً لقلم قضايا الجيزة وكان ذلك في سنة ١٨٨٢ ولم تطل مدتهُ في هذه الوظيفة الاخيرة غير بضعة اسابيع حتى قامت الثورة العرابية

صبري ابو علم